من آيات الله

فى السماء والأرض والبحر

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن الله سبحانه وتعالى الذى لا تدركه الأبصار، لم يترك الناس فى بيداء الحياة الدنيا دون تنبيه، يوقظ فيهم القلوب، ويحيى فى نفوسهم الإيمان به..

والتنبيه الذى يحرك المشاعر، ويهز النفوس تجلى فى كتابين خالدين: كتاب نراه ونحس به هو الكون أو الكتاب المنظور.. وكتاب نقرؤه ونرتله هو القرآن الكريم، الذى أنزله الخالق لإصلاح حال الخلق..

وقد عرض الكتاب المسطور كثيراً من مشاهد الكون السماوية والأرضية وساق هذه المشاهد لتحقيق أغراضه ومقاصده ولعل أهمها مسألة وجود الله والإيمان به، يقول محمد عبده فى كتابه: «الإسلام بين العلم والمدنية» وللإسلام فى الحقيقة دعوتان: دعوة إلى الإعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ.

فأما الدعوة الأولى: فلم يعول عليها إلا على تنبيه العقل البشرى، وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود، عالماً، حكيماً، قادراً. وأن ذلك الصانع واحد، لوحدة النظام فى الأكوان.

وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد.

فنبه إلى أن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك ومنافعه، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السماء ماء، فتحيا به الأرض بعد موتها، وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر، مما فيه رزق الحى، وحفاظ حياته، كل ذلك من آيات الله، على أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته.

والقرآن الكريم فى الآيات الكونية، يعمد إلى تنبيه الحواس والمشاعر، وفتح العيون، والقلوب إلى ما فى هذا الكون العظيم من غرائب، تلك التى أفقدتها الألفة غرابتها.

والقرآن إذ يلفت النظر إلى السموات والأرض وتكوينهما، إنما يوجه الحس إلى أضخم ما يتراءى فى هذا الكون العريض، فهو يلفت النظر إلى السموات بنجومها وكواكبها وأفلاكها، وإلى هذا التناسق العجيب الذى يربطهما جميعاً، ويلفها جميعاً، وإلى هذا الفضاء الهائل الذى تسبح فيه تلك العناصر الضخمة من غير أن يصيبها اختلال، أو يعتورها انحلال.

هذه الضخامة الحسية، وهذا التناسق الأخّاذ، ينبغى أن يلفتا الإنسان ويدعواه إلى التأمل الواعى، إلى ما وراءهما من قدرة كامنة، وعظمة مستقرة.

هذه المشاهد التى فى السموات والأرض كادت الألفة تذهب برونقها فى النفوس، وتزيل تأثيرها فى العقول، لولا أن القرآن راح يعرضها مرات عديدة على تلك النفوس والعقول، بذلك الأسلوب الأخاذ، ليعيد طراوتها فى الأذهان فكأنها تُرى لأول وهلة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ تلك بما فيها من كواكب ومجرات وغير ذلك وهذه الأرض بما فيها من جبال وبحار وقفار ووهاد وغير ذلك.

﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾ تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتقارضان وهذا يجئ ثم يعقبه الآخر، ضمن نظام دقيق عجيب.

﴿**و الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**﴾ أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء.

﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ أى وما أنزل الله من السحاب من مطر فأحيا بالماء الأرض من بعد يبسها.

﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾ أى وفرق فيها من الدواب من كل الأنواع والأصناف، مختلفة الأشكال والألوان، والمنافع، والصغر، والكبر.

﴿**وتصريف الرياح**﴾ ضمن نظام دقيق عجيب.

﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ المذلل المنقاد لمشيئة الله.

﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾ لدلالات بينة على وحدانية الله لمن ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون فيستدلون بهذه الاشياء على قدرة موجدها.

والآية الكريمة التى حلقت بنا فى كون الله ذكرت ظواهر، كل منها يدل على الله بما لا يقبل جدلاً: ظاهرة حدوث الكون.. وظاهرة الإرادة فيه.. وظاهرة الحكمة.. وظاهرة الهداية.. وظاهرة الإبداع.. وظاهرة الاستجابة.. وظاهرة العناية.. وظاهرة الوحدة.

﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ ظاهرة الحدوث..

﴿**واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**﴾ ظاهرة الإرادة والحكمة والهداية والعناية. ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة**﴾ ظاهرة الحياة والإبداع.

﴿**وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ ظاهرة حكمة، وعناية، وهداية، وإرادة.

وهذه الآية - كما ترى - كلها مشاهد.. لو أعاد الإنسان تأملها، كما يوحى القرآن للقلب المؤمن، بعين مفتوحة، وقلب واع. لارتجف كيانه من عظمة القدرة، ورحمتها.

ومشاهد الكون تشهد بحقيقة الألوهية - النظام والتناسق - مما يشهد بوحدانية الصانع المقْدر المدبر، الذى يصنع عن علم، ويبدع عن معرفة..

ومشاهد الكون معرض للأنظار والقلوب، وإن مجرد التعقل فى آياته، ليقود الإنسان إلى الإيمان بالله، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾.

فلو ألغى الإنسان عن عقله بَلاَدَة الأَلْفَة والغَفْلَة، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مُسْتَطْلِعَة، وقلب نوره الإيمان، لرأى فى كل شئ آية، والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية، والمؤمنون هم الذين يدركونها، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر لتلقى الإدراك.

* * *